النواحي العمرانية لمدينة الخليل في كتب الرحالة والجغرافيين العرب

الدكتور:حسن عياش

كلية الآداب جامعة فلسطين

الأهلية بيت لحم / فلسطين

الملخص:

لقد ازداد الاهتمام فى المدن التاريخية والدينية بعد ظهور الإسلام، وأخذ المؤرخون والجغرافيون على تدوين تاريخ المدن منذ نشأتها وحتى تطورها العمرانى، والإصلاحات العمرانية التى اهتمت بها دولة الخلافة؛ في شتى مراحلها، ومدينة الخليل كغيرها من المدن التى نالت اهتمام المؤرخين والجغرافيين والرحالة، ولأهمية مدينة الخليل، وما تتعرض له من عمليات تهويد وتغيير معالمها العمرانية، دفعنى هذا إلى البحث في المعلومات العمرانية الواردة في كتب الرحلات.

Abstract :

Interest has increased in historic and religious cities after the advent of Islam, and historians and geographers started to write the history of cities since its establishment and until its development, and the reforms, which concerned the State of the caliphate; in various stages, and the city of Hebron, like other cities that gained the attention of historians and geographers, travelers, and the importance of city Hebron, and under his the Judaizing operations to alter its construction, this motivated me to search the information contained in the books of travels.

مقدمة:

تتابعت الرحلات التي قام بها رحالة، وجغرافيون عرب، وغيرهم إلى فلسطين منذ القرون الوسطى، وحتى أيامنا هذه، ولقد نالت مدينتا القدس، والخليل القسط الأكبر من رحلاتهم إلى فلسطين؛ وما يعنينا في هذه الدراسة التركيز على مدينة الخليل التي عرج إليها العديد من الجغرافيين والرحالة، ودونوا مشاهداتهم، وانطباعاتهم في ثنايا مؤلفاتهم.

وستتناول عدداً من الجغرافيين، والرحالة الذين زاروا مدينة الخليل أو كتبوا عنها، مع التركيز على النواحي العمرانية، واستنطاقها في كتابات رحالة اعتمدت عليهم الدراسة، وهم: ابن خرداذبه(ت300هـ/ 912م)[1]، والإصطخري(ت346هـ/ 957م)[2] ، والمقدسي البشاري(ت380هـ/ 990م)[3]، و البكري (ت487هـ/ 1094م)[4]، والإدريسي(ت 560هـ/ 1164م)[5] ، وياقوت الحموي(ت626هـ/ 1228م)[6] ، والعبدري(ت700هـ/ 1300م)[7] ، وابن فضل الله العمري[8] (ت749هـ/ 1349م)، والرحالة ابن بطوطة[9] (ت779هـ/ 1377م).

تميزت الخليل بتراث حضاري عريق يمتد إلى 3500 عام قبل الميلاد، وتمثل الخليل المكان المقدس الثاني في فلسطين... وأن احتضانها للمسجد الإبراهيمي، أعطاها قيمة تاريخية، ودينية مهمتين في المنطقة.

ولأهميتها التاريخية، والدينية زارها عدد كبير من الرحالة العرب، والأجانب، كما أفاض الجغرافيون والمؤرخون في الحديث عنها، وعن معالمها الدينية كالحرم الإبراهيمي بخاصة، وغيره من مساجد، وزوايا، وتكايا، والتي تمثل جزءاً مهماً من التراث الحضاري للمدينة الإسلامية، وهي تأتي في إطار الجانب العمراني لمدينة الخليل الإسلامية.

من هنا يمكن القول إن الجغرافيين، والرحالة لا تخلو مدوناتهم من ذكر لمدينة الخليل لوجود الحرم الإبراهيمي الذي يحتوي على أضرحة الأنبياء، إبراهيم، وإسحق، ويعقوب -عليهم السلام- وزوجاتهم سارة، ورفقة، ولائقة -عليهن السلام- كما يتضح أن المؤرخين، والجغرافيين، والرحالة ربطوا أهمية مدينة الخليل إلى وجود الحرم الإبراهيمي[10].

تشير المصادر الجغرافية إلى أن مدينة الخليل أُسِّست قبل الإسلام، وعُرفت بأسماء متعددة في كتب الرحالة، والجغرافيين العرب، فقد وردت باسم أربع، وظهرت التسمية نسبة إلى ملكها العربي بالتحديد في عهد العناقيين[11] ، ووردت باسم حبرون، وحبرى، ولنترك النصوص عند الرحالة، والجغرافيين تكشف ما فيها لننقله بحرفيته، يقول المقدسي(ت380هـ/ 990م) حبرى بأنها هي بلد ابراهيم الخليل-عليه السلام-[12] ، ووصفها قائلاً: "إن فيها حصناً منيعاً"[13]. ويقول عبيدالله البكري الأندلسي(ت487ه/ 1094م): "حبرى: بكسر أوله، وإسكانه ثانية وفتح الراء المهملة. على وزن فعلى"[14] ، يقول ياقوت الحموي:" ويقال لها أيضا حبرى"[15] ، وجاء في "مسالك الأبصار" لابن فضل الله العمري(ت749هـ/ 1349م) :"أول من مات، ودفن بحبرى سارة"[16]. ومن أسمائها أيضاً (مسجد إبراهيم) فهذا ابن خرداذبه(ت300هـ/ 912م) يصف الخليل، فيقول:"...ومن بيت المقدس إلى مسجد إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-، وقبره ثلاثة عشر ميلاً مما يلي القبلة"[17]".

بيد أنَّ الرحالة الذين واكبوا الفترة الصليبية استمروا على استخدام "مسجد إبراهيم"، ها هو الإدريسي الذي زار الخليل أثناء الاحتلال الصليبي لها، ذكر ذلك فيقول:" ومن بيت لحم إلى مسجد إبرهيم في الجنوب نحو من ثمانية عشر ميلا"[18]، وغلب عليها اسم الخليل كما يقول ياقوت الحموي(ت626هـ/ 1228م):" في الخليل قبر الخليل إبراهيم-عليه السلام- في مغارة تحت الأرض، وهناك مشهد، وزوّار، وقوّام في الموضع وضيافة للزوّار"[19] .

يتضح من البحث عن التطابق اللفظي، أو التشابه في اللفظة أنّ التسمية في غالبها جاءت لتعني الصديق والرفيق، أو نسبة إلى ما يحويه الحرم من رفات إبراهيم- عليه السلام-، وأبناء عائلته، ولعله في اسم الخليل ما يشير إلى كلا الأمرين السالفين، وأن اختلاف التأويلات في اسم الخليل ترى فيه نسبة إلى سيدنا إبراهيم الخليل –عليه السلام- ولعل هذا منحها أهمية عربية وإسلامية، وهذا ما يؤكده معظم رحالة وجغرافيي العرب والمسلمين. ولا بدَّ لنا أن نذكر أنه مهما اختلفت تسميات مدينة الخليل، فإن الخليل ليست مجرد مدينة عادية، بل ما يمكن تأكيده أنها ثاني مدينة مقدسة في فلسطين بعد مدينة القدس، وإنّ حقيقتها التاريخية على امتداد تاريخها كانت عامرة منذ أقدم الأزمنة، وحتى وقتنا الراهن، وهذا ما يمكننا القول والتأكيد: بأن الخليل تبقى أصيلة في تراثها العربي الإسلامي.

لقد وصف لنا الاصطخري(ت346هـ/ 957م) طبوغرافيا الخليل في رحلته، فيقول:" المدينة فى وهدة بين جبال كثيرة كثيفة الأشجار، وأشجار هذه الجبال، وسائر جبال فلسطين، وسهلها: زيتون، وتين، وجمّيز وعنب، وسائر الفواكه أقل من ذلك"[20].

ويلخص ابن فضل الله العمري(ت749هـ/ 1349م) الذي زار الخليل سنة 745هـ/ 1344م، طبوغرافيا المدينة:" أما بلد الخليل -عليه السلام- وهي مزرعة إبراهيم، فإنها بلدة غير مسورة، على نحو يوم من القدس بالسير المعتاد، وهي منطوية بين جبال، لا هي في صحراء، ولا في واد، ...، ولولا مكان الخيل عليه السلام بها، لم تذكر فيما يذكر"[21]. وكذلك الرحالة ابن بطوطة"(ت779هـ/ 1377م) يصف طبوغرافيا الخليل، بقوله:" وهي مدينة صغيرة المساحة كبيرة المقدار، مشرقة الأنوار، حسنة المنظر، عجيبة المخبر في بطن واد، ومسجدها أنيق الصنعة، محكم العمل، بديع الحسن، سامي الارتفاع، مبني بالصخر المنحوت في أحد أركانه صخرة أحد أقطارها سبعة وثلاثون شبرا"[22] .

ومن المعروف أن الحرم الإبراهيمي من أهم تراث الخليل المعماري، وفيه أقدس المساجد الاسلامية في فلسطين، ويحتل الجهة الجنوبية للمدينة. حيث يحيط بالمسجد سور ضخم، تختلف الروايات حول بنائه، وترجح المراجع أن السور المعروف في الوقت الراهن يعود إلى بقايا بناء أقامة هيرودوس الأدومي[23] ، ولتعظيم المسلمين للمكان بعامة، وللمسجد بخاصة جعلهم يعادلونه بالمسجد النبوي في المدينة المنورة، حتى قيل حديثاً نبوياً: "من لم تمكّنه زيارتي فليزر قبر أبي إبراهيم"[24] ، كما ابتدع الناس الخرافات حوله، وهذا دليل على مكانته الدينية، يروى عن ابن عمر –رضي الله عنه– أنه قال : "رَأْسُهُ عِنْدَ مَسْجِدِ إِبْرَاهِيمَ وَرِجْلَاهُ عِنْدَ صَخْرَةِ بيت المقدس[25] ، ويروى أيضاً عن كعب الأحبار[26] (32هـ/ 652م) أنه قال :" أكثروا من الزيارة إلى قبر رسول الله قبل أن تمنعوا ذلك ... فمن منع ذلك، فليجعل رحلته، وإتيانه إلى قبر إبراهيم الخليل –عليه السلام–... وليكثر من الدعاء عنده, فإن الدعاء عند قبر سيدنا إبراهيم الخليل مستجاب, ولم يتوسل به أحد إلى الله في شيء إلا أجابه, ولم يبرح من مكانه حتى يرى الإجابة في ذلك عاجلاً أو آجلاً"[27] .

يكتنف الغموض حول إنشاء السور وعمرانه، مما انعكس ذلك على تدوين مشاهدات الجغرافيين والرحالة. فهذا البشاري المقدسي(ت380هـ/ 990م) يذكر أن أول من بنى سوراً حول المدينة هم الجن؛ فيقول:" حبرى هي قرية ابراهيم الخليل –عليه السلام– فيها حصن منيع. يزعمون أنه من بناء الجن من حجارة عظيمة منقوشة"[28] ، وكذلك يذكر الرحالة ابن بطوطة(ت779هـ/ 1377م) إلى ما يتناقله الناس، بقوله:"... ويقال إن سليمان – عليه السلام– أمر الجن ببنائه"[29] .

لكن بعض الرحالة ذكروا أنه من بناء سليمان –عليه السلام– فهذ ياقوت الحموي (ت626هـ/ 1228م) يذكر أن الله أمر سليمان – عليه السلام–فقد قال:"... فأوحى الله إليه(سليمان) أن ابن على قبر خليلي حيرا، ليكون لزوّاره

بعدك، فخرج سليمان، عليه السلام، فكان على حبرون فوق المغارة، فبنى عليه الحير[30].

إن السور- يسمى الحير- وكان موضع بنائه فوق المغارة التي تضم قبور الأنبياء، وأصبح ما يحويه هذا السور حمى أطلق عليه الحرم الإبراهيمي، ويقع الحرم الإبراهيمي في الجهة الجنوبية للمدينة.

يصف الأصطخري(ت346هـ/ 957م) قبور الأنبياء" قرية إبراهيم الخليل –عليه السلام- فيها حصن منيع يزعمون انه من بناء الجنّ من حجارة عظيمة منقوشة وسطه قبّة من الحجارة إسلاميّة على قبر إبراهيم، وقبر إسحق، وقبر يعقوب في المؤخر، حذاء كل نبي امرأته[31]. ويورد البشاري المقدسي إشارات مهمة عن قبور الأنبياء: "وفي المسجد الذي يجمّع فيه الجمعة قبر إبراهيم وإسحق ويعقوب –عليهم السلام- صفاً، وقبور نسائهم صفاً بحذاء كل قبر من قبورهم قبر امرأة صاحبه[32].

ويقول ياقوت الحموي:...قالوا: وفي هذه المغارة قبر آدم عليه السلام، وخلف الحير قبر يوسف الصديق جاء به موسى- عليه السلام- من مصر، وكان مدفوناً وسط النيل. فدفن عند آبائه، وهذه المغارة تحت الأرض[33]. ويكر نفس الحديث ابن فضل الله العمري"[34].

وأما ابن بطوطة الذي كانت الخليل إحدى محطاته، يقول": ثم سافرت من غزة إلى مدينة الخليل في داخل المسجد الغار المكرم المقدس فيه قبر إبراهيم وإسحق ويعقوب، ويقابلهما ثلاثة قبور هي قبور أزواجهم[35]. ويقول في مكان آخر:".. وفي داخل المسجد الغار المكرم المقدس فيه قبر إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب – صلوات الله على نبينا وعليهم-، ويقابلهم قبور ثلاثة هي قبور أزواجهم[36].

ولقد انعكس اهتمام المسلمين بالحرم الإبراهيمي، وتقديسهم له، أن نوهت معظم المصادر إلى الحرم، وعمارته، وما يحيط به، وما بداخله، فمثلاً أفاضوا

في وصف السور، وهذا ياقوت الحموي يصف الحرم الإبراهيمي، بقوله: " قد بني حوله حير محكم البناء حسن بالأعمدة الرخام وغيرها[37].

ويأتي رحالة آخر هو أبو عبد الله العبدري الحيحي(ت700هـ/ 1300م) سجل رحلته في كتاب يحمل عنوان الرحلة المغربية أو رحلة البدري، وكان زار الخليل، في العام 690هـ/ 1291م، ووصف روعتها بقوله:" حرم الخليل -عليه السلام-، وهي قرية مليحة المنظر، أنيقة المسموع والمبْصر، مشرقة كالصبح إذا أَسْفر، موضوعة ببطن واد قليل الماء والشجر، والمحيط بها حرار وَعْرة[38]".

ثم يقول العبدري في معرض وصفه للمسجد الإبراهيمي:" والمسجد بنيّة أنيقة، من المباني القديمة الوثيقة، عالية البناء، محكمة العمل، من صخور منحوتة في نهاية العِظم؛ منها صخرة في الركن الذي على يسار القبلة، وهي من الأرض على قدر القامة، فيها سبعة وثلاثون شبراً، يتعجب الناس منها ومَن وضعها هنالك، ويقال: إن البنيّة كلها من صنعة الجِن أمرهم سليمان -عليه السلام- بتجديدها، على الغار لما دَثُر ما كان عليه بتقادم الأعصار، وفيها تحريف عن الجنوب إلى المشرق؛ فلما ردت مسجدا جعل لها المحراب في الوسط كسائر المساجد تحسيناً لصورته، ثم رد الركن الأيمن محرابا آخر تنبيها على تشريقها[39]".

ثم يصف القبور ويُفصل أماكنها بالتحديد: " قال: وأول من مات من أهله، ودفن في حبرون سارة زوجة إبراهيم، ثم توفي إبراهيم فدفن بحذائها ثم توفيت ربقة زوجة إسحاق فدفنت فيها، ثم توفي إسحاق فدفن بحذائها، ثم توفي يعقوب فدفن عند باب المغارة، ثم توفيت لِيقا فدفنت بحذاء يعقوب، ثم ذكر أن أولاد يعقوب تشاجروا حتى سدوا باب المغارة، وحَوّطوا عليها حائطا، وأعلموا فيها علامات القبور، وكتبوا على كل قبر اسم صاحبه، وخرجوا عنه، وأطبقوا بابه، فكان من جاء زائرا يطوف به[40]".

وذكر بعض الرحالة أن السور بُني بحجارة ضخمة، وأنه لم يكن له باب، وقد نوه إلى ذلك غير رحالة وجغرافي، منهم ابن فضل الله

العمري(ت749هـ/ 1349م)، يقول:".. قلت: ولم يكن لهذا الحير باب، وإنما المسلمون لما افتتحوا البلد، فتحوا له باباً"[41] ثم يصف بناءه فيقول:..." وبناؤه بناء محكم. وفي حائطه حجارة هائلة في كبر القدر، منها ما طوله سبعة وثلاثون شبراً"[42].

ويقدم لنا ابن بطوطة(ت779هـ/ 1377م) في رحلته، وصفاً للمسجد الإبراهيمي: فيقول: مسجدها أنيق الصنعة محكم العمل، بديع الحسن، سامي الارتفاع، مبني بالصخر المنحوت، في أحد أركانه صخرة أحد أقطارها سبعة وثلاثون شبرا[43].

ويعطينا ابن فضل الله العمري(ت749هـ/ 1348م) وصفاً دقيقاً للحرم ما به من قبور، قائلاً: هيئة القبور في قبلة المسجد الآن قبران: الأيمن قبر اسحق، والأيسر قبر زوجته. وفي شماليه، مما هو منفصل عن المسجد بقيتين متقابلتين قبران: الأيمن قبر ابراهيم الخليل، والأيسر قبر سارة زوجته. ومن شمالي الحرم قبة منفردة مسامتة لقبة الخليل. وفيها قبر يقال انه قبر يعقوب. ولا شك ولا ريب أن إبراهيم ومن ذكر مدفونون داخل السور. وأما تعيين القبر فالله أعلم، وراء الحرم موضع فيه قبر ينسب إلى يوسف[44].

لقد تعرض الحرم الإبراهيمي إلى مراحل مستمرة من الترميم والإضافة، ومن هذه الإضافات ما تم في عهد بني أمية، فقد بنى الأمويون سقف الحرم الإبراهيمي، والقباب التي على قبور الأنبياء، ولما أفضت الخلافة إلى المهدي العباسي فتح باباً في السور من الجهة الشرقية، وأدخل على عمارته إصلاحا كثيرا[45].

كما بني العباسيون المراقى الجميلة من ناحيتي الشمال والجنوب، وأمر الخليفة العباسي المقتدر بالله(320هـ/ 932م) ببناء القبة التي تعلو ضريح يوسف عليه السلام[46].

وأبدى الفاطميون اهتماماً بمدينة الخليل، وتابعوا من سبقهم في الحفاظ على الحرم الإبراهيمي، وإحداث تطورات عمرانية، ففي عهد المهدي الفاطمي تمت أعمال الترميم والتجديد؛ فقام بفتح باب في وسط الحائط الشمالي، إضافة إلى فرش المسجد الإبراهيمي بالسجاد الثمين[47] ، كما أبدوا اهتماماً بتكية سيدنا إبراهيم، ووقفوا الأوقاف على المسجد الشريف والتكية، لتستمر في تقديم الطعام لأبناء السبيل والفقراء والزهاد[48].

وفي سنة 492هـ/ 1099م سقطت الخليل تحت الاحتلال الصليبي، فأظهروا خلالها اهتماما في المدينة، فبنوا كنيسة على موقع الحرم الإبراهيمي الشريف، كما شيدوا القلعة إلى الاوقاف غرب من الكنيسة، وبانتقال الحكم إلى الأيوبيين قام صلاح الدين الأيوبي بترميم المسجد الإبراهيمي، ونصب إليه منبر جامع عسقلان المصنوع عام 484هـ/ 1191م، وهو من أجمل المنابر التي أضافها المسلمون إلى المسجد[49]. ووَسع الملك عيسى المعظم(ت624هـ/ 1227م) المسجد، وذلك بإضافة رواق جديد، ولاهتمامه في الحرم الإبراهيمي، فقد أوقف الأخير قريتي دورا وكفر بريك – بني نعيم عام 612هـ/ 1215م[50].

واهتم المماليك بمدينة الخليل ومقدساتها؛ ففي عهد السلطان الظاهر بيبرس (ت676هـ/ 1227م) تم ترتيب السماط، والرواتب لأهل الخليل، والوافدين إليها[51] وعن تقديم الطعام يشير ابن فضل الله العمري:" ويمد فيه كل يوم بعد العصر سماط. ويفرق من الخبز على الواردين بحسبهم على قدر كفايتهم[52].

وقبل أن نختم كلامنا، فإن كتب الرحالة والجغرافيين أشارت إلى مساجد عدة في الخليل منها: **مسجد اليقين**: ويشير المقدسي البشاري إلى ذلك بقوله:" وعلى فرسخ من حبرى جبل صغير مشرف على بحيرة «صُغر» وموضع قريات لوط. ثم مسجد بناه أبو بكر الصباحي فيه موضع مرقد إبراهيم عليه السلام قد غاص في

القف نحو ذراع يقال إن إبراهيم لما رأى قريات لوط في الهواء رقد ثم وقال أشهد أن هذا هو الحق اليقين[53]".

وسجل العبدري(ت700هـ/ 1300م) مشاهداته لمسجد اليقين، فيقول: " ثم زرنا تربة لوط، وهي شرقي حرم الخليل عليهما السلام على تلٍّ مرتفع يشرف منه على غور الشام، وهو شرقيها، وهناك بحيرة لوط، وهو ماء مستبحر أجاج كماء البحر، وهي منقطعة لا تتصل بالبحر، ولا هي منه قريبة، ويقال: إنها موضع ديار قوم لوط، والله أعلم، وعلى قبر لوط عليه السلام بنيّة، وهو في بيت منها مبيضٍ مليح، والقبر أيضا مبيض، ظاهر، لا ستور عليه، وبمقربة من هذه التربة **مسجد اليقين**".

وأشار إليه أيضاً ابن بطوطة في رحلته بقوله: "وبشرقي حرم الخليل تربة لوط، -عليه السلام-، وهي على تل مرتفع يشرف منه غور الشام، وعلى قبره أبنية حسنة، وهي في بيت منها حسن البناء مبيّض، ولا ستور عليه. ... وبمقربة من تربة لوط **مسجد اليقين**، وهو على تل مرتفع له نور وإشراق ليس لسواه، ولا يجاوره إلا دار واحدة يسكنها قيّمه[54]".

وفضلا عن ذلك هناك إشارة إلى مسجد أقيم على **مقام سيدنا يونس**[55]ـ عليه السلام- ويحدثنا الرحالة العبدري(ت700هـ/ 1300م) ، فيقول: "ثم سافرنا من حرم الخليل -عليه السلام- بعدما أقمنا فيه خمسة أيام وصلينا به الجمعة، إلى بيت المقدس، وبينهما مسيرة يوم، وزرنا في طريقنا قبر يونس- عليه السلام- وهو على نحو ثلاثة أميال من بلد الخليل عليه السلام، وعليه بنيّة كبيرة ومسجد" [56].

وأشار إليه ابن فضل الله العمري:" **قبر يونس** –عليه السلام- بقرية حلحول على يسار الذاهب من بلد القدس إلى بلد الخليل –عليه السلام- ويعرج الزائر إليه، وعليه بناءُ، وقبةٌ، وله خادم[57]".

ومن الجوانب المهمة التي يشير إليها الرحالة **مقام فاطمة بنت الحسين** - رضي الله عنها-، ويقع إلى الشرق من مسجد اليقين، في مغارة محفورة بالصخر بني على مدخلها باب ... ويشير ابن بطوطة إلى هذا القبر، بقوله: "وبالقرب من هذا المسجد قبر فاطمة بنت الحسين بن علي- عليهما السلام- وبأعلى القبر، وأسفله لوحان من الرخام، مكتوب منقوش بخط بديع: بسم الله الرحمن الرحيم، لله العزة والبقاء، وله ما ذرأ، وبرأ، وعلى خلقه كتب الفناء، وفي رسول الله أسوة، هذا قبر أم سلمة فاطمة بنت الحسين رضي الله عنه"[58].

ومهما يكن من أمر، فإن الرحالة والجغرافيين أشاروا إلى التكايا، وهي الأماكن التي يُقدم فيها الطعام، ولوجود تكية سيدنا إبراهيم بالقرب من الحرم الإبراهيمي، عُرف عن الخليل بأنها المدينة التي لا يعرف أهلها الجوع، ويعود تاريخها للقرن الرابع الهجري/ التاسع الميلادي عندما أنشئت لتقديم الطعام إلى فقراء المدينة، وأهل العلم فيها وضيوفها، إكراما لسيدنا إبراهيم عليه السلام الذي عرف بكرمه الشديد.

ووصف لنا الرحالة البشاري المقدسي التكية، وما تقدمه من طعام بقوله:" وفي هذه القرية ضيافة دائمة، وطبّاخ وخباز وخدام، مرتبون يقدمون العدس بالزيت لكل من حضر من الفقراء. ويدفع إلى الأغنياء إذا أخذوا. ويظن أكثر الناس أنه من قرى ابراهيم وإنما هو من وقف نميم الداري وغيره. والأفضل عندي التورُّع عنه"[59].

وأبدى المسلمون اهتماماً كبيراً بالتكية؛ حيث اعتنى بها صلاح الدين الأيوبي، وأوقف الوقفيات الكبيرة على المسجد الإبراهيمي والتكية الإبراهيمية التي كانت تطعم الوافدين إليها.

كما استمر تقديم السماط في فترة الاحتلال الصليبي لمدينة الخليل، يقول ابن فضل العمري:" ولما استولى الفرنج على بلد الخليل-عليه السلام- أجروا هذا السماط، وزادوا على ما كان قبلهم، وبالغوا في صلة هذا المعروف"[60].

ولقد رصدت في عهد الفاطميين الأموال والمخصصات السنوية اللازمة لاستمرار عمل التكية، فوقفوا قرى على المسجد الإبراهيمي الشريف، والتكية الإبراهيمية فهذا الرحالة ناصر خسرو(توفي بعد عام462هـ/ 1070م) الذي زار الخليل 438هـ/ 1047م، يقول:" فِي المشهد حجرات للضيوف الوافدين، وَقد وقف عَلَيْهَا أوقاف كَثِيرَة من الْقرى، ومستغلات بَيت الْمُقَدّس[61]. وإلى ما يوقف عليها من أوقاف يقول ابن فضل الله العمري:" وهذا الحرم مؤزّر جذره بالرخام الملون والمذهب، وعليه أوقاف جليلة[62]. وعن تقديم الطعام يضيف ابن فضل الله العمري:" ويمد فيه كل يوم بعد العصر سماط. ويفرق من الخبز على الواردين بحسبهم على قدر كفايتهم[63].

ثم يعود ابن فضل الله العمري، فيعطي وصفا مفصلاً عما يقدم طعام، كميته ونوعه، ويقول:" ولقد زرت الخليل في ذي الحجة سنة 745هـ ـ 1344م، فأخبرني بعض المباشرين أن في بعض ليالي العشر من هذا الشهر، في هذه السنة، فرقوا زيادة على ثلاثة عشر الف رغيف، وأن غالب أيام العام ما بين السبعة آلاف والعشرة آلاف. ويفرق أيضاً مع الخبز طعام العدس بالزيت الطيب والسماق. وفي بكرة النهار يطبخ أيضاً مع قدر من الدشيش، ويفرق على الواردين. وفي بعض أيام الأسبوع، يطبخ ما هو أفخر من ذلك[64] ، ويضيف ابن فضل الله العمري:" وله خدام برسم غربلة القمح، وطحنه، وعجينه، وخبزه، لا يبطلون ليلاً، ولا نهاراً. واهراء القمح، والطاحون، والفرن نافذ بعض ذلك إلى بعض بحيث أنّ القمح يُفرغ في الأهراء، ويخرج خبزاً مخبوزاً، ولم يزل على هذا مدى الشهور، والأعوام والليالي والأيام، لا ينقطع له مدد، ولا يحصر بضبط ولا عدد[65].

وأخيراً، فإن مدينة الخليل تمثل أصالة الوجود العربي، والإسلامي وتسمتد اسمها من أثارها العمرانية الدينية، فمن سيدنا إبراهيم الخيل جاء اسمها، والحال هذه، فما من جغرافي، أو رحالة أو مؤرخ زار فلسطين أو دون عنها، إلا وحرص على وصف ما بها من معالم عمرانية تؤكد عبق التراث العربي الإسلامي

لمدينة الخليل، ويأتي في مقدمتها الحرم الإبراهيمي، فضلاً عن المساجد، والمنشآت العمرانية الدينية الأخرى، التي تتوزع في غير مكان من الخليل؛ الذي يعكس تكريماً دينياً لهذا المكان المقدس، وفي سياق هذه الدراسة كان المصدر الأساس لها هو بعض الرحالة، والجغرافيين الذين تناولوا مدينة الخليل بالمشاهدة والتدوين، وفي مقدمتهم: ابن خرداذبه (ت300هـ/ 912م)، والإصطخري (ت346هـ/ 957م)، والمقدسي (ت380هـ/ 990م)، والبكري (ت487هـ/ 1094م)، والإدريسي(ت560هـ/ 1164م)، وياقوت الحموي(ت626هـ/ 1228م)، والعبدري(ت700هـ/ 1300م)، وابن فضل الله العمري (ت749ه/ 1349م)، والرحالة ابن بطوطة (ت779هـ/ 1377م).

❖ الهوامش والمراجع

(1) أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله ابن خِرْدَاذْبَة(ت300هـ/ 912م): جغرافي، ولد في أسرة كبيرة خدمت الولاة العباسيين، وقد قيل ان مناصب ابن خرداذبة الرسمية قد حددت الى أي مدى بعيد أعماله الجغرافية والادبية ، وقد اهدى ابن خرداذبة كتابه (المسالك والممالك) لأحد الامراء العباسيين . وتضمن كتابه دليلا للطرق الرئيسية ووصفا للمدن التي تقع عليها . وقد جمع ابن خرداذبة مواد كتبه من الوثائق الرسمية تحت يده، ومما سبقه من المؤلفين، وكذلك من مشاهداته. ينظر: كراتشكوفسكي، أغناطيوس يوليانوفتش، نقله إلى العربية صلاح الدين هاشم، قام بمراجعته: إيغور بليايف، ق1، الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية، القاهرة. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، (1957م) ، ق1، ص155-158.

(2) الاصطخري، إبراهيم بن محمد(ت346هـ/ 957م): من الجغرافيين والرحالة، زار بلاد العرب وبلاد الهند. ينظر: الزركلي، خير الدين، الأعلام، 8 ج، دار العلم للملايين، بيروت، ط 5،(1980م)، جـ 5، ص312. كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب، جـ1، ص198-201.

(3) أبو عبد الله، محمد بن أحمد المقدسي المعروف بالبشاري(ت380هـ/ **990م**): رحالة جغرافي، ولد في القدس، وتعاطى التجارة، فتجشم أسفارا هيأت له المعرفة بغوامض أحوال البلاد، طاف أكثر بلاد الإسلام، وصنف كتابه "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم" امتاز المقدسي بكثرة ملاحظاته. الزركلي، الأعلام، جـ 5، ص312 .

(4) البكري، عبيد الله بن عبد العزيز(ت487هـ/ 1094م): جغرافي، عالم في الأدب، كان أميرا، وتغلب عليه المعتضد، ولد في شلطيش في الأندلس، وانتقل إلى قرطبة. ثم صار إلى المرية، فاصطفاه صاحبها (محمد بن معن) لصحبته ووسع راتبه. وهذا ما حمل بعض المؤرخين على نعته بالوزير. كراتشكوفسكي، تاريخ، جـ1، ص275 .

(5) الإدريسي، محمد بن عبد الله الحسني، المعروف بالشريف الادريسي (ت560هـ/ 1164م):من علماء الجغرافيا، ولد في سبتة ونشأ وتعلم بقرطبة، ورحل رحلة

طويلة انتهى بها إلى صقلية، فنزل على صاحبها روجار الثاني، ووضع له كتابا سماه (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق). ينظر: كراتشكوفسكي، تاريخ، جـ1، ص281-289.

(6) ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله(ت626هـ/ 1228م): من علماء الجغرافيا وأئمتها، أصله عربي من أب عربي تزوج بفتاة رومية، وانجب منها ياقوت ثم اسرة الروم صغيرا، وابتاعه ببغداد تاجر اسمه عسكر بن إبراهيم الحموي، فرباه وعلمه وشغله بالأسفار في متاجره، ثم أعتقه (سنة 596هـ/ 1199م) وأبعده، فعاش من نسخ الكتب بالأجرة، وعطف عليه مولاه بعد ذلك، فأعطاه شيئا من المال واستخدمه في تجارته فاستمر إلى أن توفي مولاه، فاستقل بعلمه، رحل إلى مرو وخوارزم، وحلب وأقام في خان بظاهرها إلى أن توفي، أما نسبته، فأرجح أنها انتقلت إليه من مولاه عسكر الحموي. ينظر: الزركلي، الأعلام، جـ8، ص131. كراتشكوفسكي، تاريخ، جـ1، ص335-341.

(7) العبدري الحيحي، أبو عبد الله، محمد بن محمد بن علي بن أحمد (ت700هـ/ 1300م) : صاحب الرحلة المعروفة باسمه . من بلنسية . وينسب إلى بني عبد الدار . كان من سكان بلدة حاحة في المغرب؛ توجه منها حاجاً عام 688هـ/ 1289م. ينظر: الزركلي، الأعلام، جـ7، ص32 .

(8) ابن فضل الله العمري، شهاب الدين،أحمد بن يحيى القرشي العدوي(ت749هـ/ 1349م): ولد في دمشق سنة 700هـ/ 1301م، تعلم في مصر. تولى مناصب كبيرة، إذ عمل قاضياً، ثم ترأس ديوان الإنشاء في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون، في ولايته الثالثة من سنة 709هـ/ 1309م إلى سنة 741هـ/ 1340م . وينتهي نسبه إلى عمر بن الخطاب، لذلك لقب بالعمري، وقد تلقي تربيته الأولي في دمشق ثم قدم إلى القاهرة ودرس بها واتخذها موطنا له، كما اهتم ابن فضل الله بدراسة الجغرافيا الطبيعية والسياسية، ودرس تاريخ الأمم، كما درس أيضا علم الفلك، قام بالتجول في الممالك الإسلامية في الشام، والأناضول، والحجاز، وغيرها، وكانت وفاته في دمشق سنة749هـ/ 1349م. الزركلي، الأعلام، جـ1، ص268. كراتشكوفسكي، تاريخ، جـ1، ص410.

(9) **ابن** بطوطة، محمد بن عبد الله الطنجي (ت779هـ/ 1377م): هو الجغرافي شمس الدين أبو عبد الله، محمد بن عبد الله، بن ابراهيم الطنجي. رحالة شهير. ولد ونشأ في طنجة، ثم خرج منها، وهو ابن 22 سنة. طاف معظم بلدان العالم المعروف المغرب ومصر، والشام والحجاز، والعراق وفارس وآسيا الصغرى واليمن، والبحرين وتركستان، وما وراء النهر، وبعض الهند والصين، وجاوا وبلاد التتر.والأندلس وجبل طارق وملقة وغرناطة وبلاد السودان، تقرب من سلطان مراكش أبي عنان المريني، وأقام في حاشيته، فاجزل له العطاء، وتقدم إليه السلطان بكتابة المشاهد العديدة والعجائب والغرائب التي شاهدها في أسفاره. وقد خلف لنا ابن بطوطه وصف هذه الرحلة في كتاب عنوانه : "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار". الزركلي، الأعلام، جـ 6، ص235-240 .

(10) ابن بطوطة، الرحلة، ص42.

(11) الدباغ، مصطفى مراد،بلادنا فلسطين، جـ5، ق2، دار الهدى، كفر قرع، طبعة جديدة، (1991م)، جـ5، ق2، ص47.

(12) المقدسي، أبو عبد الله، محمد بن أحمد البشاري (ت380هـ/ 990م) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، دار صادر، بيروت، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط3(1991م)، ص192.

(13) المقدسي، أحسن، ص192.

(14) البكري، عبيد الله بن عبد العزيز(ت487هـ/ 1094م) معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، عالم الكتب،4جـ، بيروت(1982م)، جـ2، ص419.

(15) ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبدالله (ت626هـ/ 1228م) معجم البلدان، 5جـ، دار صادر، بيروت، ط2(1995م)، جـ2، ص387.

(16) العمري، ابن فضل الله، شهاب الدين، أحمد بن يحيى (ت749ه/ 1349م) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، 27جـ، مطبعة دار الكتب العلمية، القاهرة، (1934م)، جـ1، ص168.

(17) ابن خرداذبة، أبو القاسم، عبيد الله بن عبد الله (ت300هـ/ 912م) المسالك والممالك، مطبعة بريل، ليدن، ألمانيا(1889م)، ص79.

(18) الإدريسي، أبو عبدالله، محمد بن عبدالله بن إدريس الحسني (ت560هـ/ 1164م)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق (2جـ) مكتبة عالم الكتب، بيروت ط1(1989م)، جـ1، ص363.

(19) ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ2، ص387.

(20) الاصطخري، أبو إسحق، إبراهيم بن محمد (ت350هـ/ 961م) مسالك الممالك، الهيئة العامة المصرية للثقافة، القاهرة، ص44.

(21) العمري، مسالك، جـ1، ص168.

(22) ابن بطوطة، محمد بن عبد الله الطنجي (ت779هـ/ 1377م) رحلة ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار، جزآن، دار الشرق العربي، بيروت، لبنان(1984م)، ص42-43.

(23) الدباغ، بلادنا، جـ5، ص52. محمد عبدالرحمن، قصة مدينة الخليل، ص9.

(24) العليمي، مجير الدين الحنبلي (ت927هـ/ 1520م) الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، (جزآن)، تحقيق عدنان تباتة و محمود كعابنة، ط1، مكتبة دنديس الخليل(1999م)، جـ1، ص56.

(25) ابن كثير، إسماعيل بن عمر (ت774هـ/ 1372م) البداية والنهاية، 15جـ دار الفكر، بيروت(1986م)، جـ1، ص98.

(26) كعب الأحبار: من يهود اليمن وصاحب معرفة وعلم كبير في التوراة والإنجيل وأنبياء وروايات بني إسرائيل .أسلم في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، وحدث بالكثير من الروايات الإسرائيلية كما في كتب التفسير والحديث. : الزركلي، الأعلام، جـ5، ص228.

(27) العليمي، الأنس الجليل، جـ1، ص56.

(28) المقدسي، أحسن، ص172.

(29) ابن بطوطة، الرحلة، ص43.

(30) ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ2، ص212.

(31) ينظر: الاصطخري، المسالك، ص44.

(32) المقدسي، أحسن، ص172.

(33) ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ2، ص212.

(34) العمري، مسالك، جـ1، ص170.

(35) ابن بطوطة، الرحلة، ص40.

(36) ابن بطوطة، الرحلة، ص42.

(37) ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ2، ص212.

(38) أبو عبد الله، الحيحي العبدري، محمد بن علي بن أحمد (ت700هـ/ 1300م) رحلة العبدري، تحقيق محمد الفاسي، وزارة الشؤون الثقافية، الرباط (1968م)، ص155.

(39) العبدري، الرحلة، ص156.

(40) العبدري، الرحلة، ص 153.

(41) العمري، مسالك، جـ1، ص169.

(42) العمري، مسالك، جـ1، ص169.

(43) ابن بطوطة، الرحلة، ص42.

(44) العمري، مسالك، جـ1، ص169.

(45) الدباغ، بلادنا، جـ5، ص54.

(46) الدباغ، بلادنا، جـ5، ص54.

(47) خسرو، ناصر، سفرنامه، تحقيق يحيى الخشاب، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط3،(1983م)، ص74.

(48) العمري، مسالك، جـ1، ص170.

(49) الدباغ، بلادنا، جـ1، ص216. العارف، عارف، المفصل في تاريخ القدس، ط5، مطبعة المعارف، القدس(1999م)، ص155.

(50) ينظر: الدباغ، بلادنا، جـ1، ص216. العابدي، محمود سليمان، الآثار الإسلامية في فلسطين والأردن، جمعية عمال المطابع التعاونية، عمَّان(1973م)، ص136.

(51) العليمي، الأنس الجليل، جـ2، ص318.

(52) العمري، مسالك، جـ1، ص170.

(53) المقدسي، أحسن، ص173.

(54) ابن بطوطة، الرحلة، ص41.

(55) مسجد سيدنا يونس –عليه السلام- يقع غي بلدة حلحلول القريبة من مدينة الخليل.

(56) العبدري، الرحلة، ص154.

(57) العمري، مسالك، جـ1، ص176

(58) ابن بطوطة، الرحلة، ص41.

(59) المقدسي، أحسن، ص172.

(60) العمري، مسالك، جـ1، ص171.

(61) خسرو، الرحلة، ص73.

(62) العمري، مسالك، جـ1، ص170.

(63) العمري، مسالك، جـ1، ص170.

(64) العمري، مسالك، جـ1، ص170.

(65) العمري، مسالك، جـ1، ص170-171.